حِبر أبيَض
WHITE INK

محمد الساعد

إماءٌ على عرش السلطنة!!

لم يكن تغوّل الحرملك أو مملكة النســـاء، الذي انتشر بشكل واسع في القرون الثلاثة داخل القصور الســـلطانية قبل انتهاء الحكم العثماني، لم يكن حالات اســـتثنائية شاردة لا يُبنى عليها عند قراءة المشـــهد السياسي العثماني، بل كانت إحدى الأساســـات المهمة في آليات انتقال الحكم، تلك الأساسات وضعت النساء في مرتبة مهمة في الطريق إلى العرش.

ولفهـــم تركيبة الحكم العثماني وتحليله ومقاربته في محكمة التاريخ بما له وما عليه، لا بد من فهم الطبيعة المنغمســـة في المادية، التي سَـــبَغت بيت الحكم العثماني، خاصة مع استئثارهم بالموارد المالية والإمكانات الهائلة التي توفرت للســـلطنة، واعتمادهم سياسة التفقير والتقتير على الشـــعوب "الأســـيرة" المحتلة، والانفراد بالأموال والإمكانات وتحويلها إلى جيوبهم وقصورهم لتلبية حيـــاة الترف المكلفة، ومتطلبات الشـــهوة "المنفلتة" التي انتشـــرت كالنار بين الســـلاطين والأمراء والوزراء والقادة.

النخبـــة الحاكمة في إســـطنبول تحولوا خلال قرون حكمهم إلى عبيد للشـــهوة، وأســـرى لطغيـــان الأموال والعبيد والإماء، وهو ما يؤكد أن وصـــف العثمانيين بـ "الرجل المريض" الذي أطلقه الأوربيون على العثمانيين قبيل نهاية حكمهم كان دقيقاً جدا.

فقد استسلم الســـلاطين لشـــهواتهم، وأصبحوا أســـرى لصراع الإماء وكيدهن وسعيهن للتمكّن من السلطة على مختلف مستوياتهن (أمهات – زوجات – محظيات – خليلات)، وانساقوا وراء سطوة النساء الأوروبيات الجميلات خاصة، واللاتي استعبدن وهن صغيرات، وعندما كبرن قلبن الأمر وأسرن السلاطين وتحكّمن فيهم، للدرجة التي أصبحوا ألعوبة في أيديهن يسيّرونهم كيفما شاءوا.

تلكم الإماء القادمات من مخازن الأســـيرات الأوروبيات ودخلن في تراتبية الحكم، استطعن أن يتســـللن رويدًا رويدًا إلى مفاصل الســـلطنة حتى وصل الأمر بهن إلى العرش نفسه، وصايا أحيانًا حَكَمن بالاتفاق مع صدور الدولة والأغوات والقادة المؤثرين، أو منفردات في أحيان أخرى.

تقول كثير مـــن المصادر إن بعـــض "حريم" الســـلاطين احتفظن بديانتهن المســـيحية، واســـتطعن خلال ســـنوات حكم أزواجهن أو أبنائهن الســـلاطين، حماية دولهن الأم وتمرير مشاريع تخدمهـــا تلك الدول انطلاقًا من موقعهن قريبا من مركز القرار، هذه ملامح فقط عما تمكن من فعله مَن دخل أروقة الحكم، فضلا عن الانفراد بالمراســـلات مع الدول المجاورة، وهي صلاحيات يفترض ألا يمارسها غير الحاكم نفسه.

الغريب أن السلاطين العثمانيين بالرغم من ادعائهم حب العرب وانتمائهم الديني وزعمهم الدفاع عن المقدســـات، إلا أن عنصريتهـــم فرضت عليهم عدم الزواج مـــن العربيات، حتى لا يصبحن أمهات للســـلاطين، محافظين علـــى نقاء دمائهم الأعجمية – كما تصوروهـــا – حتى لا تخالطها دماء العرب، وهو ما يؤكد ما ذهب إليه الكثير من أن السلاطين والأسرة الحاكمة العثمانية لم تكن ترى في العرب إلا عشائر أدنى مرتبة منهم، بينما رأوا في الأوربيين أندادا، ولذلك صاهروهم وتزوجوا منهم.

الصراع على العرش بما فيه من جوارٍ ونساء انعكس داخل بيت الحكم العثماني، بما حمله من مؤمـــرات دموية دامت قرونًا طويلة، بدءًا من بناء أقفاص للأمـــراء حيث يوضع فيها كل من يهدد ســـلطة "السلطان" -ولو احتمالا- داخل أقفاص يعيشون فيها حتى يموتوا، وهو ما ضعضع السلطنة العثمانية حتى سقطت أخيرًا.

لم تكن تلك الأفعال تصرفًا من أحد السلاطين في لحظة طيش، بل هي آلية إقصاء اعتمدت وصدرت بها الفرمانات السلطانية، مع كل المهددين المحتملين، تحت حجة حماية العرش، كل الأفكار المتوحشـــة التي أســـفرت عن تصفية الإخوان والأبناء والآباء والأمهات فضلًا عـــن الحلفاء مررتها أو فرضتها الإماء على الأزواج المُسْتَلَبين.

لقد تحول القصـــر العثماني إلى بيت للموت والرعب ولم يكن من الســـهل التنبؤ بمن هو الســـلطان القادم؛ لأنه لا أحد ســـيصل إليه إلا عبـــر طريق طويل من الدمـــاء والمؤامرات والاغتيالات والتناحر الدموي، وحتى من يصل من الأمراء المرشحين إلى كرسي السلطنة الأوحد في الآستانة، فهو يصل مكللا بفواتير من الآلام التي عاشـــها، والأمراض النفسية المستعصية التي رافقته منذ طفولته حبيسًـــا مهددًا في الأقفاص والغرف المغلقة المظلمة، أو محاولته تفـــادي حتمية الموت والاغتيال خنقًا أو رميًا في بحر البسفور.